نظرية الاستعارة من "ريتشاردز" إلى "لايكوف": روافد وامتدادات

The theory of metaphor from 'Richards' to 'lakoff': tributaries and extensions

الدكتورة: روضة جديوي*

جامعة باجي مختار عنابة،

Dr.raodhadjedioui@gmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠١/٠٢ القبول:٢٠٢١/٠٥/٠٣

النشر :٢٠٢٤/٠١/٢٢

ملخص

تعدّ الاستعارة من أهمّ المواضيع التي استقطبت اهتمام الباحثين من لغويّين وسيميائيّين وفلاسفة، على اختلاف توجّهاتهم ومشاربهم الفلسفية. وهذا ما فسّر تنوّع النظريّات التي جعلت من الاستعارة بؤرة لاهتماماتها. إذَّاكَ حاولنا في هذا البحث أن نَطْرُقَ نظريةً نراها من أهمّ النظريّات المُمَهِّدةِ لظهور النظرية التصوّرية وهي: النظرية التفاعلية، التي بشّر بها "ريتشاردز"، ووضع أسسها "ماكس بلاك"، ثمّ تبعه آخرون من أمثال "أورتوني"، و"لايكوف، و"جونسون".

أمّا الهدف الذي نسعى إلى تحقيقه من هذه الدراسة فيتمثّل في محاولة تقصّي المسار الذي سارت عليه أهمّ التنظيرات في مقاربة الاستعارة ونمذجتها، لتصبحَ بديلًا عن المقاربات الكلاسيكيّة. وذلك انطلاقا من النّظرية التفاعليّة، وَوُصُولًا إلى النظرية العرفانية.

وقد برزت الإشكاليّة الخاصّة بهذا البحث بشكل أساسي من خلال السؤال التالي:

ما هو الطّرح الجديد الذي قدّمته النظريّة التفاعلية في مجال الدراسات اللّغوية تمهيدًا للنظريّة العرفانيةّ؟

كما أنّ بحثاً كهذا يَستوجبُ اتّباعَ منهجٍ وصفيٍّ تحليليٍّ، استنادًا إلى أهمّ طروحات النظرية العرفانيّة لرسم مساره.

الكلمات المفتاحية: نظرية تفاعلية؛ نظرية عرفانية؛ استعارة تصوّرية؛ قيد عرفاني؛ دلالة الأطر

Abstract

Metaphor is one of the most important topics that attracted the attention of researchers, of different orientations and philosophical backgrounds. This explained the diversity of theories that made metaphor the focus of its interests, so we tried in this research to address a theory that we see as one of the most important theories that paved the way for the emergence of conceptual theory, which is the interactive theory, which was preached by 'Richards', and laid by M.Black, followed by others

The aim of this study is to try to follow the path taken by the most important theorizing in the metaphor approach to become an alternative to classical approaches, from interactionist theory to the cognitive theory. The problem of this

research emerged mainly by asking the following question: What is the new proposal presented by interactive theory in the field of linguistic studies as a prelude to cognitive theory?

KeyWords: cognitive theory ; interactive theory ; conceptual Metaphor; cognitive constraint; farame semantics

*المؤلف المرسل

المقدمة:

قامت النظرية التفاعلية على أسسٍ نظريّةٍ من أهمّها: أنّ المعنى دينامي، ومَرِن، ومتغيّر، لارتباطه بالعالم، بل وتشكيله له، وتكيّفه مع التّغيّرات التي تحدث في محيطنا، والتي تستوجب تحوّلاً في الأصناف الدّلالية تبعًا لذلك. كما ضربت هذه النظريّة صفحًا عن النّظر إلى اللغة باعتبارها بِنْيَة (structure)؛ وهي النّظرة التي كانت سائدةً إبّان الحقبة البنويّة، حيث كان يُنظر إلى المعنى على أنّه خاصيّةٌ متأصّلةٌ في الكلمات والجمل بل وناشئةٌ عنهما.

وأصبح يُنظر إلى المعنى بوصفه متأصّلا في التجربة؛ فلا يمكن الحصول على المعنى اللغوي دون أن يتضافر ويتكامل مع جوانب التجربة والخبرة الأخرى.

إذًاكَ تصبو رؤيتنا إلى التوقّف عند أهم المحطّات التي تأجّجت فيها النظرية التفاعلية، من خلال عرض تصوّر أهم أقطاب وروّاد هذه النظرية للاستعارة.

وقد قادنا التنقيب في هذا الموضوع إلى إماطة اللثام عن نظرية ممتدّةٍ وممهِّدةٍ لظهور أهم مقاربة للاستعارة؛ وهي نظرية الاستعارة التصورية لـ"لايكوف" و"جونسون"، متوسِّلَة في سبيل ذلك منهجًا وصفيّا بالاستناد إلى طروحات النظرية العرفانية.

I. الاستعارة والنظرية التفاعلية:

شيّد "آيفور أرمسترونغ ريتشاردز" صرح النّظرية التّفاعليّة على أنقاض النظرية الاستبداليّة، انطلاقاً من نقده للتصوّر الذي يرى أنّ الاستعارة مسألة لغويّة، فهو يرى بُعدًا آخر للاستعارة باعتبارها نتاجًا فكريًا تَمَخّض عن عوامل اجتماعيّة وثقافيّة. وعلى هذا المنحى سار البلاغيون الجُدد من أمثال "ماكس بلاك" (Max Black) و"بول ريكور" (Paul Ricœur) و"جورج لايكوف" (George Lakoff) ومارك جونسن" (M. Johnson).

١. الاستعارة عند ريتشاردز (I.A.Richards):

يرى "ريتشاردز" أنّ المعنى ليس ثابتًا، بل هو مُعطى متغيّر خاضع للسّياق، وينبغي حينئذٍ إعادة النّظر في وظيفة البلاغة الأرسطيّة التي كانت تقوم على أن تكون وظيفةُ البلاغةِ الجديدة «دراسةً لحالات سوء الفهم وطرق معالجتها» (إيفور أرمسترونغ ريتشاردز، ٢٠٠٢ ، ص٥).

أي أنّ المعنى التّفاعلي داخل النص لا يُبنى إلّا نتيجةً للتّفاعل الدّلالي بين الكلمات داخل السّياق، حيث تُغيِّر الكلمات معانيها بِتَغيُّرِ السّياقات، وهذا ما أطلق عليه "ريتشاردز" (خُرافة المعنى الخاص).

إلّا أنّ كلمة (خُرافة) قد تبدو للوهلة الأولى كلمة قويّة وصادمة، وهو ما دفع بـ"ريتشاردز" إلى محاولة إقناعنا بوجود هذه الخرافة فعلاً حين ننخدع بالتغيّرات الطارِئة عليها دون عناءٍ، «وكثيرًا ما نتابع هذه الكلمات بدرجة كبيرة من السّهولة بحيث لا نشكّ بوجود تغيّر فيها».(إيفور أرمسترونغ ريتشاردز، ٢٠٠٢ ، ص٧٧– ٧٨).

ومن أجل شرح فكرة "ريتشاردز"، سنرصد دلالة كلمة "كتاب" في الجمل التالية:

– إنّهُ مجلّدٌ هائلٌ وليس كتاباً.

– إنّه مفتون بكتابه.

–كتابة الكتاب.

– تجليد الكتاب.

– طبع الكتاب.

– تنظيم الكتب في الكشاف.

في كلّ مثال من هذه الأمثلة غيّرنا معنى كلمة (كتاب)، بحيث تتضارب هذه المعاني أحياناً، فلا أحد يستطيع أن يجلّد الذي أُؤَلِّفُه من هذه المحاضرات. وما يُطبَع وما يُجمَع شيئان مختلفان تمامًا عمّا أعمل على تأليفه الآن (أي مجموعة الأفكار في رأسي)، رغم أنّهما يلتقيان معه بطرق مختلفة.

ولذلك يعزو "ريتشاردز" انتباهنا للتّغيّرات التي تطرأ على الكلمات الحيّة البسيطة ومتابعتنا لها إلى اعتيادنا عليها، في حين أنّنا لم نَعتَد على التّغيّرات التي تطرأ على الكلمات التّأمُّلية ذات الصّيغة التّجريديّة العالية. ويبقى حدوث ذلك مَطمَحًا وفرصة كبيرة للتّطوّر العقلي ومشروعًا قد يتحقّق يومًا ما. (ريتشاردز، ٢٠٠٢، ص٥).

انطلاقا من هذه النظرة الجديدة للمعنى، عمل "ريتشاردز" على تشييد نظريةّ بلاغيّة دلاليّة جديدة تكون فيها **الاستعارة** بؤرةً للبحث، وهذا ما بشّر به في كتابه "فلسفة البلاغة"، حين قدّم مفهومًا جديدًا للبلاغة يمتح من تصوّر دلالي يُعَدّ حافزاً وإرهاصًا لما توصّل إليه البلاغيّون الجُدد فيما بعد.

وفيه يرفض "ريتشاردز" أن يكون للكلمات معانٍ محدّدة مسبقًا، أي قبل انخراطها في السياق، وينبغي أن نرفض– ولو إلى حين – أن تكون للكلمات معانٍ مُحدّدة فقط وأن «يكون الخطابُ مجرّدَ نَظمٍ لهذه المعاني، تماماً كما ينتظم الجدارُ من مجموع أحجاره. وهكذا يجب أن نغيّر بؤرة تحليلنا ونحاول أن نفهم فهماً أعمق وأدقّ، وأن ننظر في بُنَى الوحدات الصّغرى للمعاني موضوع النقاش، والطّرق التي تختلف فيها الوحدات حين تُرصف مع وحدات أخرى.

وإذا كانت الأحجار لا تُبالي – في مختلف الأغراض العَمَليّة – أن تُرصف ومع أي شيء، فإنّ المعاني تهتمّ بشدّة ربّما أكثر من أيّ شيء آخر. فمن خواصّ المعاني أنّها تهتمّ بما يجاورها اهتمامًا بالغًا [...] إنّ للنظرة السائدة – التي ترى أنّ لهذه الكلمات معانٍ ثابتة يمكن أن نتعلّمها ونلاحظها – ما يسوّغها، فأكثر الكلمات حين تنتقل من سياق إلى آخر تُغيّر معانيها وبطرائق كثيرة الاختلاف». (ريتشاردز، ٢٠٠٢، ص١٨-١٩).

ويصبح التعامل حينئذٍ مع الدلالة التي تتشكّل على أساس تفاعل الكلمة مع ما يجاورها من كلمات أخرى داخل السيّاق، حيث تكتسب كلّ كلمة خاصيّاتها من الكلمات الأخرى التي ترافقها. ولا تقف هذه الكلمات عند الكلمات المنطوقة فحسب بل تتعدّى ذلك لتشمل الكلمات غير المنطوقة التي تمارِس سلطتَها وإن كانت غائبة.

بل إنّ "ريتشاردز" يذهب إلى أبعد من ذلك، حين أصرّ على أنّ مجرّد الاعتقاد بأنّ للكلمات معانٍ مستقلة في ذاتها هي ضرب من الشعوذة والسّحر. (ريتشاردز، ٢٠٠٢، ص٧٤-٧٥).

وقد قادته تجربته الشخصية – أو لِنَقُلْ طموحه الفكريّ – إلى محاولة إقناعنا أنّ الكلمة المفردة التي تأتي معزولة عن بقية الكلمات المنطوقة أو المفتَرَضة، ليس لها معنى في ذاتها، شأنها شأن أيّة رقعة ملوَّنة في لوحة فنيّة، لا تكتسب حجمًا أو مساحة ما لم توضَع في إطار معيّن.

ومع شدّة حماسه واندفاعه وراء هذا الطموح، لا يتوقّع "ريتشاردز" أن يكون هناك أيّ تغيير لسلوكنا إزاء فهمنا لمعاني الكلمات. وذلك لاعتقادٍ راسخ لديه أنّ عادةَ الانسياق وراء الافتراض المضاد قويّةٌ جِدًا. (ريتشاردز، ٢٠٠٢، ص٧٤-٧٥). ولذلك نجد أنّ السيّاق يلعب دورًا هامًّا في عمليّة التّفاعل بين سياقات علميّة مختلفة على بؤرة الاستعارة لتوليد معانٍ جديدة، ليس هو معناها الأصلي في الاستعمالات الأدبية. (صلاح فضل، ١٩٩٢، ص ١٥٣).

إنّ هذه الهيمنة للاستعارة كانت نتيجةً لاعتبارها الوحدة السيّاقية للدلالة. فإذا كانت الكلمة تشكّل تركيبة من المظاهر، والتي هي في حدّ ذاتها الأجزاء المقتطعة من سيّاقاتها المختلفة، فإنّ مبدأ الاستعارة يكون مشتقًّا من هذا الوضع اللّغوي.

وإذا كانت الاستعارة تحتفظ بفكرتين متزامنتين عن شيئين مختلفين يتمّ التفاعل بينهما في إطار لفظة أو تعبير بسيط، حيث يتمخّض عن هذا التفاعل دلالة جديدة، فإنّه لكي يرتبط هذا الوصف مع "نظرية الدلالة " تقول حينها إنّ الاستعارة تحتفظ في جملتها داخل الدّلالة البسيطة بجزأين منقوصين من سيّاقين مختلفين لهذه الدلالة.

وعليه فإنّ الأمر لم يعد متعلّقًا بتنقّل بسيط للألفاظ، وإنّما أصبح يتعلّق بعلاقة تجاريّة تبادليّة بين الأفكار، أي تفاعل بين السيّاقات. وإذا كانت الاستعارة دلالة على البراعة والموهبة، فإنّ موهبة الفكر والبلاغة عند "ريتشاردز" هي تأمّل وترجمة هذه الموهبة إلى معرفة متميّزة. (Paul Ricœur, ١٩٧٥, p. ١٠٥)

نخلص أخيرا إلى أنّ "ريتشاردز" قد بنى تصوّره للاستعارة انطلاقاً من نقده للمنظور التقليدي الأرسطي الذي يرى أنّ الاستعارةَ شيءٌ خاصٌّ واستثنائيّ في الاستعمال اللّغوي، وموهبةٌ يمتلكها بعض الناس دون غيرهم، بالإضافة إلى كونها جمالًا وزخرفًا وقوّة إضافيّة للغة وليست مكوِّنا أساسيًا لها.

وأكّد على أنّنا نكتسبُ قدرتَنا على الاستعارة مثلما نتعلّم أيَ شيءٍ يميّزنا كبشر؛ أي أنّ الاستعارةَ مسألةٌ طبيعية في اللّغة وفي التفكير الإنساني، وهو ما يمكن البرهنة عليه بالملاحظة المجرّدة؛ «فنحن لا نستطيع أن نَصُوغَ ثلاثَ جُمَلٍ في أيّ حديث اعتياديّ سَلِسٍ دون اللّجوء إلى الاستعارة. ولا يمكن الاستغناء عن الاستعارة حتّى في اللغة الجافّة للعلوم الرّاسخة والموضوعات شبه الفنيّة». (يوسف أبو العدوس، ص١٢٩-١٣٠)

٢. **الاستعارة عند "ماكس بلاك"** (Max Black):

ناقش "ماكس بلاك" النّظرية التفاعلية للاستعارة من خلال كتابه الموسوم بـ"النّماذج والاستعارة" (Models and Metaphor) وبيّن أنّه لا يمكن لأحد أن يصلَ إلى كُنْهِ الاستعارة وطبيعة مفهومها إلّا من خلال الإجابة عن مجموعة مميّزة من الأسئلة وهي:

- كيف نتعرّف على جملة استعاريّة؟
- هل يمكن تحويل التعبير الاستعاري إلى تعبير حَرفي عادي؟
- هل هناك قواعد محدّدة للتعرّف على الاستعارة؟
- هل يمكن عدّ الاستعارة زخرفا لفظياً مضافا إلى المعنى البسيط؟
- ما العلاقة والروابط بين الاستعارة والتشبيه؟
- في أيّ معنى تكون الاستعارة خلّاقة؟
- متى يمكننا استخدام الاستعارة؟
- وبعبارة أخرى ماذا نعني بالاستعارة؟ (عبد الاله سليم، ٢٠١١، ص٦٢-٦٣)

وقد أجاب "بلاك" عن هذه الأسئلة من خلال نقده للمنظور الاستبدالي والمنظور المقارن كما يلي:

يرى المنظور الاستبدالي أنّ الاستعارة مشتقّة من بنية حرفيّة، ويرى المنظور المقارن أنّها مشتقّة من بنية تشبيهيّة ترد فيها أداة التّشبيه فإذا أخذنا مثالاً: زيدٌ أسدٌ .....[١]

فإنّ هذه الجملة من المنظور الاستبدالي مشتقّة من:

زيدٌ شجاعٌ .....[٢]

وفي المنظور المقارن مشتقة من:

زيدٌ كالأسد.....[٣]

وقد انتقد "بلاك" هذين التصوّرين لأنّهما يعزلان الاستعارة عن سيّاقها التركيبي، ويضعان حدودًا فاصلة بين طرفي الاستعارة، حيث يحافظ كل واحد منهما على خصائصه ويتمّ استبدالهما ببعضهما البعض عند الحاجة التجميلية أو التوضيحيّة. (عبد الاله سليم، ٢٠١١، ص٦٢-٦٣)

إنّنا نفهم من تصوّر "ماكس بلاك" أنّ استعمالنا لاستعارة ما يجعلنا حيال فكرتين حول أشياء مختلفة وحركيّة في الآن ذاته. وهما ترتكزان على لفظ واحد أو عبارة واحدة بحيث تكون دلالتها نتيجة لتداخلهما.

وعليه فالفكرتان ترتبطان بالمشبه به والمشبه أو "الحامل" (vehicle) و"المحمول" (tenor) –حسب اصطلاح "ريتشاردز"– والمحمول هو الفكرة الضمنيّة، التي يعنيها الحامل، حيث تتولّد فكرة ثالثة مختلفة ناتجة عن تفاعل الحامل والمحمول «والملاحظ أنّ الطّابع الجشطالتي ظاهر في فكرة "ريتشاردز" هذه، ذلك أنّ النظرية الجشطالتية ترى أنّ البنية ليست بالضرورة حاصل جمع أجزائها، بل إنّها من طينة مختلفة عن هذا الجمع. (عبد الاله سليم، ٢٠١١، ص٦٤).

إنّ التفاعل الذي يحصل بين البؤرة والإطار ينتج عنه تخلّي البؤرة عن بعض خصائصها واكتسابها لخصائص أخرى، كما أنّ الإطار يفقد بعض سماته ويكتسب أخرى. وحين نقول :"زيد أسد"، فإنّ الأسد سيفقد بعضًا من خصائصه الحيوانيّة ليكتسب من جهة أخرى سمات إنسانية، كما أنّ "زيدًا"سيفقد بدوره بعضًا من سماته الإنسانية ليكتسب سمات حيوانية. (عبد الاله سليم، ٢٠١١، ص٦٣).

إنّ هذا التّفاعل بين البؤرة والإطار يجعل من الاستعارة عمليّة ذهنيّة بين فكرين نشيطين، ينتج عنهما مُوَلَّدَة جديدة، نستطيع بواسطتها إدراك الشّيء غير المعتاد في طرفي الاستعارة عن طريق شيء آخر نعرفه. كما نتمكّن كذلك من النّظر إلى هذا المعتاد نفسه نظرة جديدة غير مألوفة. (عبد الاله سليم، ٢٠١١، ص٦٣). ينظر الشكل (١):

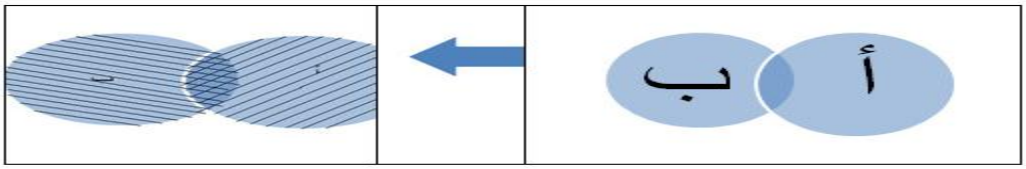

المنظور التفاعلي للاستعارة

تجدر الإشارة إلى أنّ "ماكس بلاك" جعل نجاح الاستعارة رهينة لبقاء القارئ واعيًا ومدركاً لامتداد وتوسّع الكلمة، فهو مُرغم على ردِّ الاعتبار لكلا الدلالتين القديمة والجديدة. وبهذا فإنّ النّظرية التفاعليّة للاستعارة تُولي

اهتمامًا بالمتلقّي في عمليّة فهم وتأويل الاستعارة، بحيث تلعب الظّروف السياقيّة والخارجيّة دورًا مركزيًا للكشف عن هذا التفاعل.

٢. **الاستعارة عند بول ريكور:**

أثار "بول ريكور" ثلاث قضايا مفصليّة جعلها ركيزة لبناء تصوّره عن الاستعارة وهي كما يلي:

١,٢ القضيّة الأولى:

رفَض النظر إلى الاستعارة على أنّها مجرّد حدث يدلّ على التّسمية (أي مجرّد استبدال في دلالة الكلمات). وعلينا أن نتحدّث إذن عن قول استعاري كامل، وليس استعمالا استعاريًّا لكلمة معينة. ولأنّ الاستعارة لا تهتمّ بالكلمات، فهي تنتج على صعيد جملة كاملة. وهذا أوّل كشوف المقاربة الدلاليّة للاستعارة. وإذا كانت الاستعارة حسب "ريكور" لا تهتم إلّا بالقول، فهي إذن مسألة إسناد لا مجرّد تسمية. وهي توتّرٌ حادثٌ بين تأويلَين متعارضَين للقول، وليست شيئا يحصل بين مفردتين في القول.

وقد أَورد "ريكور" مثالاً لذلك: «صلاة زرقاء» و«غطاء الأحزان»، وأوضح أنّ وضع الكلمتين في علاقة توتّر هو ما يشكّل الاستعارة، وليس مجرّد الجمع بينهما. وهكذا لا يجب أن نتكلّم عن استعمال استعاري لكلمة بعينها بل عن قول استعاري.

٢,٢ القضية الثانية:

وهي قضية الانزياح: فمادامت الاستعارة لا تهتمّ بالكلمات باعتبارها تنتج على صعيد جملة كاملة، فإنّ الظّاهرة الأولى التي ينبغي تأمّلها ليست انزياحاً عن المعنى الحَرفي للكلمات، بل توظيف عمل الإسناد على صعيد الجملة بكاملها.

يقول "ريكور": «ما دعوناه قبل قليل بالتّوتر في القول الاستعاري ليس بالشيء الذي يحصل بين مفردتين في القول، بل هو في حقيقته توتر بين تأويلين متعارضين للقول. والصراع بين هذين التأويلين هو الذي يغذي الاستعارة؛ فالصلاة ليست زرقاء إذا كان الأزرق لونا، والأحزان ليست غطاءً إذا كان كِساءً مصنوعا من قماش، وهكذا فالاستعارة لا توجد في ذاتها، بل في التأويل ومن خلاله». (بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، ٢٠٠٦، ص٢٠)

٣,٢ القضية الثالثة:

اعتقاده بأنّه قد أُسِيء فهم هذا الدّور حين اختُزِلَ في سدّ الفجوة التي تحدث بين فكرتين متباعدتين. وبعبارة أخرى تلعب المشابهة دورها المنوط بها في إظهار قرابة بين فكرتين متناقضتين، حيث لا ترى العين الاعتيادية أية علاقة.

ولكي يُوَضّحَ "ريكور" (فكرة الابتكار الدّلالي للمشابهة) التي تبنّاها؛ جاء بالمثال الشكسبيري «الزمن شحّاذ»؛ وجمع في هذا المثال صنفين كانا متباعدين سابقاً، لما تتمتّع به مشابهة من قدرة هائلة على الجمع بين البُعَداء. وهكذا كان أرسطو مصيبا في هذه النظرة حين قال:«إنّ الانغمار في الاستعارة المبتكرة يتطلّب عينا لالتقاط المتشابهات». (بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، ٢٠٠٦، ص٩٢)

ومنه توصّل "ريكور" إلى أنّ الاستعارة لا تعني مجرّد استبدالٍ لكمة بكلمة أخرى. لأنّ هذا الاستبدال لا يمثّل أيّ ابتكار دلاليّ يحدث بين تأويلين أحدهما حَرفي والآخر مجازي، يتمّ من خلاله خلقُ معنى جديد على مستوى الجملة، لا تنتبه البلاغة التقليدية إلّا لآثاره ونتائجه، فهي لا تستطيع خلق المعنى.

لكن في النظرية التفاعليّة التي تؤمن بوجود توتّر في الاستعارة، تنبثق دلالةٌ جديدة تضمّ بداخلها الجملةَ كلَّها. بهذا المعنى تكون الاستعارةُ خَلْقًا تِلقائيًا، وابتكاراً دلاليًا لا مكان له في اللغة السّائدة، ولا وجود له إلّا لأنّه اكتسب مُسندًا غير عاديّ أو غير متوقّع. «ولذلك تشبه الاستعارة حلّ لغز، أكثر ممّا تشبه اقترانًا قائمًا على المشابهة، لأنّها تتكوّن أصلاً من حلّ لغز التّنافر الدّلالي». (بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، ٢٠٠٦، ص٩٣)

II. الاستعارة والنظرية العرفانية:

١. الاستعارة عند "جورج لايكوف" و"مارك جونسون":

تبنّى "**جورج لايكوف**" و"**مارك جونسون**" مفاهيمًا – خلافاً للمنظور الأرسطي- تكون الاستعارة فيها ملازمةً لحياتنا اليوميّة. فلا مجالَ إذن للحديث عن لغة انزياحيّة في إطار هذا التصوّر. وإنّما العادة هي الاستعارة، فعقولنا تتحرّك وفق أُطر استعاريّة بطريقة غير واعية. إذ تُسيّرنا الاستعارات في فهم الكثير من الوقائع، إن لم تكن كلّها. وحين نبدأ بوعي هذه الاستعارات، نستطيع أن نحلّلها ثم نحدث التّغيير فيها، ومن ثَمَّ التّغيير في العالم.
وقد شيّدا تصوّرهما للاستعارة على دعائم النظريّة الدلالية الحديثة، التي ترى أنّ المعنى ينبني على بُعدين: البعد النّفسي والبعد التّجريبي.

١,١البعد النفسي: يستمدّ البُعد النّفسي أفكاره من علم النّفس العرفاني، الذي يركّز اهتمامه على كيفية امتلاك الذّهن البشري للمعرفة وفاعليّته في بناء المعنى. والبنية الذهنية لمتكلّم اللّغة – حسب هذا الطرح – هي أصل المعنى، وعليه فالمعنى موجود في أذهان البشر باعتبار أنّهم يشتركون في عنصر الذهن وهو عماد معرفتهم «والقاسم المشترك بين بني البشر» (عبد المجيد جحفة، ٢٠٠٠، ص٤٣).

ومهمّة اللغة إذن تكمن في ترجمتها للمعنى الذي تمّ بناؤه في مستوى الذهن. وبهذا تعكس اللغة – وهي عبارة عن رموز وعمليّات خوارزمية- الفكر البشري؛ أي ما يقوم به من عمليّات ذهنيّة وتكون الرّموز اللغوية تمثيلات داخليّة لحقائق خارجية (لايكوف وجونسون، ص ٩).

فالعلاقة إذن بين المتكلّم والعالم الخارجي بالاعتبار الفيزيائي، علاقة غير مباشرة. وبالتّالي فقد جاز لنا أن نطرح السؤال التالي: كيف يتمّ بناء المعنى داخل الذهن البشري؟

تجيبنا المقاربة النّفسية عن هذا السّؤال من خلال ثلاث طروحات عرفانيّة، تعدّ أهمّ الروافد التي استلهم منها "لايكوف" و"جونسون" تصوّرهما للاستعارة، في محاولة منهما لتأسيس نظرية مميّزة لتفسير المعاني وتفسير حدوثها. وهذه الطروحات الثلاثة هي ما عُرف بالقيد العرفاني (constraint cognitive) الذي اقترحه "جاكندوف" (١٩٨٣). وما عرف بدلالة الأطر (farame semantics). وهي نظرية وضع أسّسها ودافع عنها فيلمور(١٩٨٤). ونظرية الفضاءات الذهنية التي قدّمها فوكونيي (١٩٨٥). (لايكوف وجونسون، ص ٩).

أ. القيد العرفاني ونظرية الدّلالة التصورية:

يرى "جاكندوف" (R.Jackendoff) أنّ بناء المعنى يتمّ من خلال افتراض مستويات للتمثيل الذهني تتضافر فيه المعلومات القادمة من أجهزة بشرية أخرى مثل جهاز البصر و الجهاز الحركي، والأداء غير اللغوي، وجهاز الشمّ ...إلخ (لايكوف وجونسون، ص ٦). بحيث يكون الرّابط بين هذه الأجهزة هو اللغة. إذْ بها يستطيع البشر أن يتحدّثوا عمّا يرونه ويسمعونه، وأن يَصِفُوا إحساساتهم وإدراكاتهم وتجاربهم المختلفة.

ولابدّ من وجود مستويات من التّمثيل الذّهني، حتى تكون فيها المعلومةُ التي تؤيّدها اللغة منسجمةً والمعلومة الآتية من الأنظمة المحيطة. مثل الرؤية والسماع غير اللغوي، والشّم والشعور بالحركة وهكذا. (راي جاكندوف، ٢٠١٠، ص٦٨).

ويرى "جاكندوف" أنّه في حال انعدام هذه المستويات، فمن المستحيل استعمال اللغة في الإخبار عن المُدخلات الحسيّة، ولا نستطيع الحديث عمّا نرى ونسمع، شريطة أن تنسجم المعلومات التي يحتمل أن ينقلها النظام الحركي كي نتمكّن من تمثيل قدرتنا على تنفيذ الأوامر و التعليمات. (راي جاكندوف، ٢٠١٠، ص٦٨).

وحتّى تتبوّأ النّظرية مكانًا لها في علم النفس فإنّ ذلك « يتطلّب واصلًا (interface) بالجهات اللغويّة؛ فأَنْ تَستعمِل النّظر- مثلا- لتُرشِد الجسم إلى أين يذهب، يتطلّب من الجسم محرِّكا بصريًا باعتباره واصلاً. وأن تعرف أنّ الإحساس بالسّمع والإحساس بالبصر متزامنان أو أنّهما متماثلا التّموقع، يستوجب واصلًا سمعياً -بصريًا، وهكذا دواليك. (راي جاكندوف، ٢٠١٠، ص٦٨).

إلاّ أنّ هذا الطّرح يشـــترط أن تكون البنية الدّلالية عند البشـــر غنيّة وذات قوة تعبيريّة أو نفســـيّة «بحيث ترمّز وتفكّ ترميز كلّ ما يمكن أن تعبّر عنه اللغة، وتعالج كلّ ما تطلبه التّجربة البشريّة مهما اختلفت طبيعته». (لايكوف وجونسون، ص ٦).

ولكن لابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الأمر يتعلّق رأسًا بطريقة تقسيم البشر للعالم، وكيفيّة بنائهم لحقيقته؛ وذلك باعتبار أنّ هؤلاء البشر ذوات مدرِكة لها عدّة وسائل -واللغة جزء منها — فقط للاتّصال بمحيطها، وإدراكه، والتّفاعل

معه، والفعل فيه، والانفعال به. واللغة مهمّة في ذلك كونها تعبّر عن هذا الاتّصال وتخبرنا بتفاصيله وفق تصوّر ذهني بشري. (عبد المجيد جحفة، ٢٠٠٠، ص٤٨).

ولتوضيح هذه الفكرة يمكن هنا تقديم مثالين مُستهلكين معروفين جدًا، أوردهما "جاكندوف" في كتابه "علم الدلالة والعرفانية" مجسّدين في الشكلين (٢)و(٣).

الشكل (٢): صورة النقاط المربّع – X

. .

. .

المصدر: (راي جاكندوف، ٢٠١٠، ص٧٩).

يتصوّر كل من ينظر إلى الشّكل (٢) أنّ النّقاط الأربع تشكّل مربّعا، رغم أنّ هذه النّقاط لا تربطها خطوطٌ، وهنا جاز لنا أن نتساءل: لماذا لا نتصوَّرُها شكلَ (X) مثلاً؟

أمّا الشكل (٣) يمكن أن ينظر إليه على أنّه صورة جانبية لمزهريّة على خلفية سوداء، أو باعتبارها صورة لوجهين متقابلين على خلفية بيضاء.

الشكل (٣): صورة المزهرية – الوجهان المتقابلان

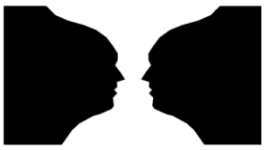

المصدر: (راي جاكندوف، ٢٠١٠، ص٧٩).

وأمّا الصورة (٤) فيراها "جاكندوف" إحدى أكثر الصّور لُبسًا. وهي صورة (البطّة– الأرنب) التي عرضها "فيتغنشتاين" عام ١٩٥٣.

الشكل (٤): صورة البطة – الأرنب

المصدر: (راي جاكندوف، ٢٠١٠، ص٨١).

تلك الأمثلة التي ساقها جاكندوف هي عيّنات أنموذجية، حاول أن يثبت من خلالها أنّ البيئة المحيطة بالإنسان ليست السّبب الوحيد لكل مايراه، لأنّ العالم كما نعيشه متأثّرٌ بطبيعة العمليات اللّاواعية في تنظيم المدخل البيئي. ولا يستطيع المرءُ أن يدركَ العالم الحقيقي حسيّا كما هو.

إنّ الإجراءات الذهنية التي تخلق هذا التنظيم للمدخل هي إجراءات آليّة، وغير واعية في ذات الوقت، ولا يمكن أن تخضع للرقابة الإرادية. ولنأخذ على سبيل المثال أخدوعة (ميلر–لاير)، أو مايعرف بتباين المسافة كما في الشكل (٤). وهما خطان متساويان رغم أننا لا نراهما كذلك.

الشكل (٤): صورة أخدوعة "ميلر"

المصدر: (راي جاكندوف، ٢٠١٠، ص٨١).

وبناءً على ما سبق ذكره، تتبدّى لنا خصائص هذا التنظيم؛ وهو تنظيم ذهني يرتبط بصورة سببيّة بعمليّة الإدراك وبحالات الجهاز العصبي، ويتمّ تشغيل هذا المستوى وتوظيفه من طرف الكائن البشري، في كلّ حين، فكلّما صادف معرفة أو تجربة، فإنّه يربطها دائما بتنظيمه الذهني، وهو ما يمكن قوله في الاستعارة، حيث تشكّل مجالاً للمعلومات الموجودة في الذهن، وبعض هذه المعلومات الذهنية نجدها مرمّزة في اللغة، فنعمل على تفكيكها انطلاقا من محفّزات العالم الخارجي وتجاربه.

ب. دلالة الأُطر والفهم الموحّد:

يرى "فيلمور" أنّ بناء المعنى يتمّ من خلال «تحديد المداخل المعجمية ورصـــد معانيها على أطر عامّة تتجانس فيها مختلف النماذج العرفانية البشـرية. هذه الأطر تخصّـص فهما موحّدا ومُؤَمْثَلًا (idealized) لمجالٍ من مجالات التجربة». (لايكوف وجونسون، ص ٦).

فالفهم عند "فيلمور" هو المعيار لصحّة المعنى، حيث تتجلّى هذه القناعة من خلال دفاعه عن ضرورة تحديد المعنى باعتبار الفهم وليس باعتبار شروط الصّدق المعروفة في الأدبيّات اللّسانية المنطقية.

ومن المعلوم أنّ النظريات القائمة على شروط الصّدق تعتمد على ثنائية: الصدق / الكذب في رصد المعنى.

ونظرية شروط الصّدق يمكن تلخيصها في المثال الذي ساقه فيلمور: إذا كانت الجملة التالية:

- «الثلج أبيض » صادقة....(١)
- والجملة «العشب وردي» كاذبة ....(٢)

بحسب هذه النظرية فإنّه يجب أنّ نسند إلى كل الجمل الكاذبة نفس الشرط الكاذب «العشب وردي». إلا أنّه لا تعني كل الجمل الصادقة نفس الشيء ولا الجمل الكاذبة، وفوق هذا، فالجمل الكاذبة ماصِدْقِـيًّا تحمل بدورها معنى ما، وليس الجمل الصّادقة فحسب. (لايكوف وجونسون، ص ٦).

وبخلاف هذا الطّرح يدافع "فيلمور" على ضرورة تحديد المعنى باعتباره نوعًا من أنواع الفهم وليس باعتباره شرطًا من شروط الصّدق المعروفة فقولنا "العشب وردي" لا يفترض عدّها دلالة كاذبة، وإنّما نحاول انطلاقًا من نظرية "دلالة الأطر" البحث عن علاقات دلاليّة تربط بين الألفاظ داخل الحقول الدلالية. ولهذا فهي تُغنينا عن شروط الصدق الممكنة في العالم الممكن.

ج. الفضاءات الذهنية والمستوى العرفاني:

يقدّم "فوكونيي" طرحًا جديدًا يختلف عن طرح "جاكندوف" في القيد العرفاني و"فيلمور" في دلالة الأطر. يحتوي هذا الطرّح على فكرة تتعلّق بالمعنى الذي تُشحن به العبارة عند الاستعمال، فهو يفرّق بين «الخصائص الدّلاليّة التي تفيدها عبارة لغويّة ما بمقتضى بنيتها (وهو ما يعرف في الأدبيّات اللّسانية بالمعنى النّووي)، وبين الخصائص الذّريعية (properties pragmatic) أو البلاغة التي تفيدها العبارة اللغوية انطلاقا من الاستعمال والسّياق (وهو مايعرف بالمعنى الهامشي).

وتتلخّص فكرة "فوكونيي" فيما يسمّيه بالمستوى العرفاني: وهو مستوى وسيط (intermediate) بين اللّغة والعالم الخارجي، حيث يتمّ بناؤه حين نستعمل اللغة. كما أنّه يرى أنّ «اللّغة ترتبط رأسًا بعالم حقيقي أو فيزيائي. فبين اللّغة والعالم الفيزيائي سيـــــرورة بناء واسعة، وهذه السيرورة لا تعكس العبارات اللّغوية التي تُنشِئُها، ولا العالم الحقيقي الذي تُعتبر الأوضاعُ فيه أهدافًا للعباراتِ التي تنطبقُ عليها». (لايكوف وجونسون، ص ٥).

ويؤكّد بشكل أساسي على أنّ هذا المستوى الوسيط «يُبنى حين تُستعمل اللغة، حيث يتمّ تحديده في نفس الوقت بواسطة الأشكال اللّغوية التي نستخدمها في تركيب وإنتاج خطاب ما بواسطة مجموعة مرتّبة من التلميحات الخارج – لغوية (extralinguistique) التي تدخل فيها عدّة أشـــياء من قبيل التنبؤات والتجلّيات الذّريعيّة ....الخ». (لايكوف وجونسون، ص ٦).

ووفق هذا الطّرح فإنّ العبارات اللّغوية لا معنى لها في ذاتها، وليست مُحمّلة بمحتوى قَضَوِيّ، بل يمكن اعتبارها تعليمات يتمّ تنفيذُها بإزاءِ نوعٍ معيّنٍ من البناء الذّهني في المستوى العرفاني.

٢,١ البعد التجريبي:

يؤكّد هذا الطّرح أنّ التّجربة هي أساس البناء التفاعلي وهي تُستَمَدّ (أي التجربة) من العلاقة بين المتكلّم ومحيطه الخارجي «وعلى قيام هذه العلاقة في مستوى معين، أو على الأقل على وجود تفاعل بين المتكلّم باعتباره خزّانا لمعلومات معيّنة والمعلومات القادمة من المحيط والبيئة ». (لايكوف وجونسون، ص ٤٤). وقد استعمل "لايكوف" و"جونسون" البعد التجريبي وما يشتمل عليه من أبعاد حسيّة حركيّة وعاطفية، فلاحظا أنّ هذا البعد:

أ. تفاعلي ينتج من خصائص البشر، ومن تجربتهم في العالم الذي يعيشون فيه، باعتبار أنّ هؤلاء البشر ذوات مُدرِكة لها عدّة وسائل للاتّصال بمحيطها، وإدراكها له والتّفاعل معه والفعل فيه والانفعال به، وتجارب أخرى ترتبط بالإنسان العادي.

ب. يرتبط أساسًا بإسقاطٍ خياليٍّ يستعمل آليات مثل الاستعارة والكناية، وهذه الآليات تُتيح أن ينتقل البشر ممّا يقومون بتجربته إلى نماذج معرفيّة مجرّدة.

وحتى نفهم ما ذهب إليه "لايكوف" و"جونسون" سنحاول معالجة بعض الاستعارات **الاتّجاهية** التي ترتبط بالاتجاه الفضائي مثل: "عالٍ/ مستفل ، داخل/خارج، أمام / وراء ، فوق / تحت، عميق /سطحي...إلخ. وهذه الاستعارات هي نِتاجٌ لتموضع أجسادنا وكيفية اشتغاله في المحيط الفيزيائي، ممّا يُبَنْيِنُ نَسَقَنَا التّصوّري وِفق توجّهٍ فضائيٍّ. حيث تُعطِي «هذه الاستعارات الاتّجاهية لتصوّراتنا توجّها فضائيًا. كما في التصوّر التالي: السعادة فوق: فَكَوْنُ تصوّر السّعادة مُوَجَّهًا إلى أعلى هو الذي يُبرِّر وجودَ تعابيرٍ مِنْ قَبيل: " أُحِسُّ أنّني في القِمّة"». (لايكوف وجونسون، ص ٣١). أي أنّ وجود هذه الاستعارات ليس وجودًا اعتباطياً، لأنّ لها مرتكزاتٍ في تجربتنا الفيزيائية والثقافية. وفيما يلي نعرض في الجدول (١) كيفية اشتغال الاستعارات التي يستعملها نسقنا التصوّري انطلاقاً من تجربتنا في الفضاء ومرتكزاتها الفيزيائية:

الجدول (١): الاستعارات الاتجاهيّة

نوع الاستعارات	الاتّجاه	الأمثلة	المرتكزات الفيزيائية
السعادة فوق / الشقاء تحت	فوق/تحت	– إنّني في قمة السعادة. – إنّه في الحضيض هذه الأيام.	ترتبط وضعية السقوط بالشقاء والانهيار، وترتبط وضعية الانتصاب بحالة عاطفية إيجابية.
الوعي فوق / اللاوعي تحت	فوق/تحت	– إنّه ينهض باكرا في الصباح. – إنّه يغطّ في نوم عميق.	ينام الإنسان وأغلب الثدييات الأخرى في وضعية تمدّد، ويقوم حين يكون مستيقظا.
الصحّة والحياة فوق / المرض والموت تحت	فوق/تحت	– إنّه في قمّة العافية وأوجها. – لقد هوى من المرض. – سقط ميتا.	يجبرنا المرض الخطير على التمدّد الفيزيائي، وحين نموت نكون فيزيائيا في وضع تحتي.

المصدر: الجدول من إنشاء الباحثة

وعليه، فإنّ أهمّ ما يمكن استنباطه من الأمثلة أعلاه، أنّ جزءًا هامًّا من تجاربنا، وسلوكاتنا، وانفعالاتنا استعاريٌّ من حيث طبيعته. وبهذا لن تكون الاستعاراتُ مشتقّةً من حقائقَ أصليّةٍ، بل تكون نفسُها عبارةً عن حقائق بصدَدِ الفكر البشريِّ، والنّسق التصوّري البشري. فنحن نمارس حياتَنا اليوميّة بالاستعارة، وهو ما يجعل تفكيرَنا استعارياً بطبعه، بل إنّنا نحيا بالاستعارات.

الخاتمة

حاولنا في هذا الورقة البحثية وضع القارئ أمام الطرّوحات والافتراضات التي صنعت لبّ النظرية العرفانيّة للاستعارة، وهي طروحات توالت في الظهور منذ إرساء الدّعائم الأولى التي أرساها "أيفور أمسترونغ ريتشاردز" ووصولا إلى المشروع المشترك الذي جمع بين "لايكوف" و"جونسون". وهو المشروع الذي قام على دحض النظرية التقليدية للاستعارة في ادّعائها لكُلِّيَّة الحقيقة وحَرفِيَّتِها، في منأى عن إدراك الإنسان لها.

ومن هنا كفّت الاستعارة أن تكون ظاهرة لغويّة يحتكرها الأدباء والشعراء والفنّانون، وتبوّأت لها مكانة خاصّة في النظرية الدّلالية التي تَعتبِر الاستعارة آليةً عرفانيّة، بها يدرك الإنسان ذاته، ويتمثّل العالم من حوله، ويفهم أكثر المفاهيم التّجريدية.

وقد رأينا في هذه الدراسة كيف تشتغل الاستعارة من خلال قيامها على عملية خُطاطيّة، يتمّ فيها إسقاط ترسيمات المجال المصدر على المجال الهدف، فنفهم السعادة والشقاء – مثلا – عن طريق إسقاط خاصيّات الاتجاهات الفضائية من علوّ واستفال.

ومع توالي الأبحاث والجهود على امتداد عقود أربعة من الزّمن–منذ صدور كتاب (الاستعارات التي نحيا بها) لـ"لايكوف" و"جونسون" سنة ١٩٨٠– تعرّضت النّظرية لتطويرات هامّة من خلال ما يصدر من حين لآخر من أبحاث واختبارات في تخصّصات علميّة مختلفة. قد تكون هذه التطويرات مجالا خصبا لدراسات –نظرية وتطبيقية–نقوم بها مستقبلًا بإذن الله تعالى.

قائمة المراجع:

- **المراجع العربية:**

١. إيفور أرمسترونغ ريتشاردز، فلسفة البلاغة، ترجمة سعيد الغامدي، ناصر حلاوي، إفريقيا الشرق، الرباط ٢٠٠٢.

٢. بول ريكور، نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط٢ ،٢٠٠٦.

٣. راي جاكندوف، علم الدلالة والعرفانية، ترجمة عبد الرزاق بنور، دار سيناترا للنشر، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، ٢٠١٠.

٤. لايكوف وجونسون، الاستعارات التي نحيا بها، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى.
٥. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢.
٦. عبد الاله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقارنة معرفية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠١١.
٧. عبد المجيد جحفة، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط١، ٢٠٠٠ .
٨. يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد العربي الحديث، الأبعاد المعرفية والجمالية، دت، دط.

- **المراجع الأجنبية:**

١. . Paul Ricœur, La métaphore vive, Edition du Seuil, Paris١٩٧٥.